

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

من بدائع الفوائد

دَمُ الْحَسَنِ وَأَهْلِهِ

تصنيف
الحافظ العلامة ابن قيم الجوزية
المتوفى سنة ٧٥١هـ

على عليه فتح أمانه
علي حسن، علي عبد الحميد

قُلْ أَعِدُّوا ذُرِّيَّتَكمْ لِلْفَقْرِ وَلا يُغْنِ عَنْكُمُ الْكُلُوفُ وَلا جَمْعُ النَّعْمَةِ شَيْئاً مِّنْ فَقرٍ إِنَّمَا أَفْكُمُ النَّفْسَ الْفَاسِدَةَ إِنَّكُمْ كَافِرُونَ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعِدُّوا ذُرِّيَّتَكمْ لِلْفَقْرِ وَلا يُغْنِ عَنْكُمُ الْكُلُوفُ وَلا جَمْعُ النَّعْمَةِ شَيْئاً مِّنْ فَقرٍ إِنَّمَا أَفْكُمُ النَّفْسَ الْفَاسِدَةَ إِنَّكُمْ كَافِرُونَ

دار الحديث

دار الحديث

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

ذم الحسنة وأهله

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

دار القبس : عمان - هاتف ٦٢١٢١١ - ص.ب ١٨٤٢٠٥
دار عمّار : عمان - هاتف ٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١

رَفَعُ
مِنْ بَدَائِعِ الْفَوَائِدِ
عبد الرحمن النخعي
أُسْكِنَهُ اللَّهُ الْفِرْدَوْسَ

ذَمُّ الْحَسَنِ وَأَهْلِهِ

تصنيف
الحافظ العلامة ابن قيم الجوزية
المتوفى سنة ٧٥١هـ

على عليه وخرج أمانته
علي حسن بن علي عبد الحميد

دار القبس
عمّان

دار حسنة
عمّان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَفَعُ

عبد الرحمن العفري
أسكنه الله الفردوس

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من
شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن
يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله :

أما بعد

فهذه رسالة لطيفة استلقتها من كتاب «بدائع الفوائد»^(١)
للمحافظ الكبير الإمام شمس الدين بن قيم الجوزية - رحمه الله
تعالى - ، تعالج مرضاً خطيراً ورد ذكره في كتاب الله سبحانه
وتعالى ، وفي سنة رسوله ﷺ ، وهو مرض «الحسد» .

والإمام ابن القيم من كبار أئمة الإسلام المصلحين ، ذو
مؤلفات كثيرة نافعة ، أفرد عدداً منها في البحث في أمراض
القلوب ، وعلل النفوس ، فرحمه الله ورضي عنه ، ونفع
برسالته ، وكتب الأجر لمن أفاد بها واستفاد منها ، آمين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَفَعُ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَسْلَمَ (بِهِ) الْفَرُوقِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من
شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل
له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد :

[فلقد ورد في «سورة الفلق» من كتاب الله تعالى الإستعاذة
من شرور أربعة ، آخرها هو] الشرّ الرابع : شر الحاسد^(١) إذا
حسد ، وقد دلّ القرآن والسنة على أن نفس حَسَدِ الحاسد يؤذي
المحسود ، فَنَفْسُ حَسَدِهِ يَتَصَلُّ بِالْمَحْسُودِ مِنْ نَفْسِهِ وَعَيْنِهِ ،
وإن لم يؤذه بيده ولا لسانه ، فإن الله تعالى قال : ﴿وَمِنْ شَرِّ
حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ فحَقَّقَ الشَّرَّ مِنْهُ عِنْدَ صَدُورِ الْحَسَدِ ، وَالْقُرْآنُ
لَيْسَ فِيهِ لَفْظَةٌ مَهْمَلَةٌ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَاسِدَ لَا يُسَمَّى حَاسِداً إِلَّا

(١) قال الشيخ محمد حامد الفقي في تعليقه على «التفسير القيم» (ص
٥٧٤) : أصل الحسد في اللغة : بغض نعمة الله ، وتمني زوالها عن
المحسود أو تحولها إلى الحاسد . الخ ، وسيأتي شرح المصنف له .

إذا قام به الحسد ، كالضارب ، والشاتم ، والقاتل ، ونحو ذلك ، ولكن قد يكون الرجل في طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود لاه عنه ، فإذا خطر على ذكره وقلبه انبعثت نار الحسد من قلبه إليه وتوجهت إليه سهام الحسد من قبله فيتأذى المحسود بمجرد ذلك ، فإن لم يستعذ بالله ويتحصن به ، ويكون له أوراؤ من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله والإقبال عليه بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على الله وإلا ناله شر الحاسد ولا بُد فقلوله تعالى : ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾ بيان لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل . وقد ورد في حديث أبي سعيد الصحيح ^(١) رقية جبريل النبي ﷺ وفيها : « بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك » ، فهذا فيه الاستعاذة من شر عين الحاسد .

ومعلوم أن عينه لا تؤثر بمجرد ما ، إذ لو نظر إليه نظر لاه ساء عنه كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره لم يؤثر فيه شيئاً ، وإنما إذا نظر إليه نظر من قد تكيفت نفسه الخبيثة وانسمت واحتدت فصارت نفساً غَضَبِيَّةً حاسدة أثرت بها تلك النظرة فأثرت في المحسود تأثيراً بحسب صفة ضعفه وقوة نفس الحاسد ، فربما أعطبه وأهلكه بمنزلة من فوق ^(٢) سهماً نحو

(١) أخرجه مسلم (٢١٨٦) والترمذي (٩٧٢) .

(٢) سدّد وصوب .

رجلٍ عُريَانٍ فأصاب منه مقتلاً وربما صرعه وأمراضه .

والتجاربُ عند الخاصّة والعامة بهذا أكثرُ من أن تُذكر .
وهذه العينُ إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثة ، وهي في ذلك بمنزلة الحيّة التي إنما يُؤثر سُمُّها إذا عضّت واحتدّت ، فإنها تتكيّف بكيفية الغضب والخبث فتحدث فيها تلك الكيفيّة السّمّ ، فتؤثّر في الملسوع وربما قويت تلك الكيفيّة واشتدّت في نوع منها حتى تُؤثر بمجرد نظرة فتطمس البصر وتسقط الحبل كما ذكره النبي ﷺ في الأبر وذِي الطُفَيتين منها ، وقال : «اقتلوهما فإنهما يطمسان البصر ويسقطان الحبل»^(١) .

فإذا كان هذا في الحيات فما الظنُّ في النفوس الشريرة الغَضبية الحاسدة إذا تكيّفت بكيفيتها الغَضبية وانسمّت وتوجّهت إلى المحسود بكيفيتها ، فله كم من قتلٍ ؟ وكم من سلب ؟ وكم من مُعافى عاد مُضنى على فراشه يقول طبيبه : لا أعلم داءه ما هو ! فَصَدَقَ ، ليس هذا الداء من علم الطبائع ، هذا من علم الأرواح وصفاتها وكيفياتها ومعرفة تأثيراتها في الأجسام والطبائع وانفعال الأجسام عنها ، وهذا علمٌ لا يعرفه إلا خواصّ الناس .

(١) رواه البخاري (٢٥٢/٦) ومسلم (٢٢٣٢) ومالك (٩٧٦/٢) عن عائشة .

والمحجوبون مُنكرون له ولا يعلم تأثير ذلك وارتباطه بالطبيعة وانفعاليها عنه إلا مَنْ له نصيبٌ من ذوقه وهل الأجسام إلا كالخشب المُلقى ، وهل الانفعال والتأثر وحدث ما يحدث عنها من الأفعال العجيبة والآثار الغريبة إلا من الأرواح ، والأجسامُ آلتها بمنزلة آلة الصانع فالصنعة في الحقيقة له ، والآلات وسائطٌ في وصول أثره إلى الصنع ، ومن له أدنى فطنة ، وتأمّل أحوال العالم ولطّفت روحه ، وشاهدت أحوال الأرواح وتأثيراتها وتحريكها الأجسام وانفعاليها عنها ، كل ذلك بتقدير العزيز العليم خالق الأسباب والمسببات ، رأى عجائب في الكون وآيات دالة على وحدانية الله وعظمته وربوبيته وأنّ ثمّ عالماً آخر تجري عليه أحكامٌ آخر تشهد آثارها وأسبابها غيبٌ عن الأبصار .

فتبارك الله ربّ العالمين وأحسن الخالقين الذي أتقن ما صنع وأحسن كل شيء خلقه .

ولا نسبة لعالم الأجسام إلى عالم الأرواح بل هو أعظم وأوسع وعجائبه أبهر وآياته أعجب ، وتأمّل هذا الهيكل الإنسانيّ إذا فارقتّه الروح كيف يصير بمنزلة الخشبة أو القطعة من اللحم ، فأين ذهبت تلك العلوم والمعارف والعقل وتلك الصنائع الغريبة وتلك الأفعال العجيبة وتلك الأفكار

والتدبيرات ؟ كيف ذهبت كُلُّها مع الروحِ وبقي الهيكلُ سواء
هو والتراب ؟ وهل يخاطبك من الإنسان ، أو يراك أو يحبك أو
يُواليك ، أو يعاديك ، ويخفّ عليك أو يُثقل ويؤنسك ويوحشك
إلا ذلك الأمر الذي وراء الهيكل المشاهد بالبصر فُربَّ رجلٍ
عظيمُ الهيولى^(٢) كبيرُ الجثة خفيفٌ على قلبك حلوّ عندك ،
وآخرٌ لطيفُ الخلقة صغيرُ الجثة ، أثقلُ على قلبك من جبلٍ ،
وما ذاك إلا للطافة روح ذاك وخفّتها وحلاوتها وكثافة هذا وغلظ
روحه ومرارتها ، وبالجملّة فالعُلق والوصّل^(٣) التي بين
الأشخاص والمنافرات والبُعد ، إنما هي للأرواح أصلاً ،
والأشباح تبعاً .

(١) مريض .

(٢) مادة الشيء التي يصنع منها .

(٣) أي الروابط والصلات .

فصل

رَفَعُ
عَنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمَلِكِ الْبَرِّ الْكَرِيمِ

والعائنُ والحاسدُ يشتركانِ في شيءٍ ، ويفترقانِ في شيءٍ :
فيشتركانِ في أنَّ كلَّ واحدٍ منهما تتكَيَّفُ نفسُهُ ، وتتوجَّه
نحوَ من يريدُ أذاهُ .

فالعائنُ : تتكَيَّفُ نفسُهُ عندَ مُقابلةِ المعينِ ومُعَايِنَتِهِ .
والحاسدُ : يحصلُ له ذلكُ عندَ غَيْبَةِ المحسودِ وحضوره
أيضاً .

وفيفترقانِ في أنَّ العائنَ قد يُصِيبُ من لا يحسدهُ ، من
جمادٍ أو حيوانٍ ، أو زَرْعٍ أو مالٍ ، وإن كان لا يكادُ ينفكُ من
حَسَدِ صاحبه ، وربما أَصَابَتْ عَيْنُهُ نفسَهُ . فَإِنَّ رُؤْيَاهُ لِلشَّيْءِ
رُؤْيَاً تَعْجِبُ وتُحْدِيقُ ، مع تَكَيَّفِ نفسِهِ بتلكِ الكيفية : تُؤَثِّرُ في
المعينِ .

وقد قال غيرُ واحدٍ من المفسرين في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ
يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ (١) :
إنَّه الإِصَابَةُ بِالْعَيْنِ ، أرادوا أَنْ يُصِيبُوا بِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فنظر
إليه قومٌ من العائنين ، وقالوا : ما رأينا مثله ، ولا مثل حُجَّتِهِ .
وكان طائفةٌ منهم تمرُّ به الناقةُ والبقرةُ السمينَةُ فَيَعِينُهَا ، ثم يقول

(١) سورة القلم : ٥١ .

لخادمه : خُذِ الْمِكْتَلَ والدرهم وائتنا بشيء من لحمها ، فما تبرح حتى تقَع ، فتنحر^(١) .

وقال الكلبي : كان رجلٌ من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل ، ثم يرفعُ جانب خبائه^(٢) ، فتمر به الإبل ، فيقول : لم أر كالיום إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه ، فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط منها طائفةٌ ، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين ، ويفعل به كفعله في غيره . فعصم الله رسوله وحفظه . وأنزل عليه : ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ هذا قول طائفة^(٣) .

وقالت طائفة أخرى ، منهم ابن قتيبة^(٤) : ليس المراد : أنهم يصيبونك بالعين ، كما يُصيب العائنُ بعينه ما يُعجبه ، وإنما أراد : أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء ، يكاد يُسقطك . قال الزجاج : يعني من شدة العداوة يكادون بنظرهم نَظَرَ البغضاء أن يصرعوك . وهذا

(١) انظر «الدر المنثور» (٢٥٨/٦) و«زاد المسير» (٣٤٤/٨) وقال ابن كثير : وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل .

(٢) هو بيت من وبر أو صوف ، «المصباح المنير» (١٦٣/١) .

(٣) انظر «أسباب النزول» (ص ٢٤٩) للواحدي .

(٤) في «تفسير غريب القرآن» (٤٨٢) .

مُسْتَعْمَلٌ فِي الْكَلَامِ . يَقُولُ الْقَائِلُ : نَظَرَ إِلَيَّ نَظْرًا كَادَ يَصْرَعُنِي .

قَالَ : وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْمَعْنَى : أَنَّهُ قَرَنَ هَذَا النَّظَرَ بِسَمَاعِ الْقُرْآنِ ، وَهُمْ كَانُوا يَكْرَهُونَ ذَلِكَ أَشَدَّ الْكَرَاهِيَةِ ، فَيُحَدِّثُونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ بِالْبَغْضَاءِ .

قُلْتُ : النَّظَرُ الَّذِي يُؤْثِرُ فِي الْمَنْظُورِ : قَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ شِدَّةُ الْعَدَاوَةِ وَالْحَسَدِ فَيُؤْثِرُ نَظْرُهُ فِيهِ ، كَمَا تَوَثَّرَ نَفْسُهُ بِالْحَسَدِ ، وَيَقْوَى تَأْثِيرُ النَّفْسِ عِنْدَ الْمَقَابَلَةِ . فَإِنَّ الْعَدُوَّ إِذَا غَابَ عَنْ عَدُوَّهُ فَقَدْ يَشْغَلُ نَفْسَهُ عَنْهُ ، فَإِذَا عَايَنَهُ قُبُلًا اجْتَمَعَتِ الْهَمَّةُ عَلَيْهِ ، وَتَوَجَّهَتِ النَّفْسُ بِكُلِّيَّتِهَا إِلَيْهِ . فَيَتَأَثَّرُ بِنَظَرِهِ ، حَتَّى إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْقُطُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْمُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْمَلُ إِلَى بَيْتِهِ . وَقَدْ شَاهَدَ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ كَثِيرًا^(١) .

وَقَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ الْإِعْجَابُ ، وَهُوَ الَّذِي يَسَمُّونَهُ : بِإِصَابَةِ الْعَيْنِ . وَهُوَ أَنَّ النَّاضِرَ يَرَى الشَّيْءَ رُؤْيَاً إِعْجَابٍ بِهِ أَوْ اسْتِعْظَامٍ ، فَتَتَكَيَّفُ رُوحُهُ بِكَيْفِيَّةٍ خَاصَّةٍ تَوَثَّرُ فِي الْمَعِينِ ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَعْرِفُهُ النَّاسُ مِنْ رُؤْيَاةِ الْمَعِينِ ، فَإِنَّهُمْ يَسْتَحْسِنُونَ الشَّيْءَ وَيُعْجِبُونَ مِنْهُ ، فَيَصَابُ بِذَلِكَ .

(١) وَهَذَا لَا زِلْنَا نَرَاهُ إِلَى الْيَوْمِ ، فَإِلَى اللَّهِ الْمَشْتَكِي مِنَ الْحَاسِدِينَ وَشُرُورِهِمْ !

قال عبدالرزاق : عن مَعْمَر عن هشام بن مُنْبِه^(١) قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «العين حقٌ ، ونهى عن الوشم»^(٢) .

وروى سُفيان عن عمرو بن دينار عن عُرْوَة بن^(٣) عامر عن عُبيد بن رفاعَة أنَّ أَسْمَاء بنت عُمَيْس قالت : يا رسول الله ، إن بني جعفر تصيبهم العين ، أفنسترقى لهم ؟ قال : «نعم . فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين»^(٤) .

فالكُفَّار كانوا ينظرون إليه نظر حاسد شديد العداوة ، فهو نظرٌ يكاد يُزلقه لولا حفظُ الله وعصمته ، فهذا أشدُّ من نظر

-
- (١) تحرف في «الأصل» إلى هشام بن قتيبة ، والصواب ما أثبت !!
(٢) أخرجه عبدالرزاق في «مصنّفه» (١٩٧٧٨) والبخاري (١٧٣/١٠) والبلغوي في «شرح السنة» (٣١٩٠) .
(٣) تحرفت في «الأصل» إلى : عن .
(٤) حديث حسن أخرجه أحمد (٤٣٨/٦) والترمذي (٦/٢) وابن ماجه (٣٥٦/٢) ، ومن الطريف أن العلامة الشيخ محمد حامد الفقي في تعليقه على هذا الموضع من «التفسير القيم» قال : ما درجة هذه الأحاديث من الصحة ؟ فليس كل ما قيل حديثاً يكون حديثاً !! قلت : عجباً ، فهما حديثان صحيحان ، أحدهما في «صحيح البخاري» كما علمت !

العائن ، بل هو جنسٌ من نظر العائن فَمَنْ قال : إنه من الإصابة بالعين أراد هذا المعنى ، وَمَنْ قال : ليس به ، أراد أن نظرهم لم يكن نظرَ استحسانٍ وإعجابٍ ، فالقرآن حقٌ .

وقد روى الترمذي^(١) من حديث أبي سعيد «أن النبي ﷺ كان يتعوذ من عين الإنسان» فلولا أن العين شرٌّ لم يتعوذ منها .

وفي الترمذي^(٢) من حديث علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير حدثني حيّة بن حابس^(٣) التميمي حدثني أبي : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا شيء في الهام» ، والعين حقٌ .

وفيه^(٤) أيضاً من حديث وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال «كان رسول الله ﷺ يقول : لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين ، وإذا استغسلتم فاغسلوا» وفي الباب عن عبدالله بن عمرو ، وهذا حديث صحيح .

والمقصود: أن العائن حاسدٌ خاصٌ ، وهو أضربٌ من

(١) برقم (٢٠٥٨) وأخرجه النسائي (٢٧١/٨) وابن ماجه (٣٥١١) وإسناده حسن .

(٢) برقم (٢٠٦٢) وإسناده منقطع وضعيف .

(٣) في «الأصل» : حابس بن حبة ، والصواب ما أثبت .

(٤) برقم (٢٠٦٢) ، وأخرجه مسلم (٢١٨٨) ، وأبو نعيم في «أخبار أصفهان» (١٩١/١) .

الحاسد ، ولهذا - والله أعلم - إنما جاء في السورة ذكرُ الحاسد دون العائن ، لأنه أعمُّ ، فكل عائنٍ حاسدٌ ولا بُدَّ ، وليس كلُّ حاسدٍ عائنًا ، فإذا استعاذ من شر الحاسدِ دخل فيه العائنُ ، وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته .

وأصلُ الحَسَدِ : هو بغضُ نعمة الله على المحسود ، وتمني زوالها .

فالحاسد عدوُّ النعم ، وهذا الشرُّ هو من نفسه وطبعها ، ليس هو شيئاً اكتسبه من غيرها ، بل هو من خُبثها وشرِّها ، بخلاف السَّحر ، فإنه إنما يكون باكتساب أمورٍ أُخرى ، واستعانةٍ بالأرواح الشيطانية ، فلهذا - والله أعلم - قرَنَ في السورة بين شر الحاسد وشر الساحر ، لأن الاستعاذة من شر هذين تعمُّ كلَّ شر يأتي من شياطين الإنس والجنِّ ، فالحسد من شياطين الإنس والجنِّ ، والسحر من النوعين !

وبَقِيَ قِسْمٌ ينفرد به شياطينُ الجنِّ ، وهو الوسوسة في القلب ، فذكره في السورة الأخرى^(١) ، كما سيأتي الكلامُ عليها إن شاء الله .

فالحاسد والساحر يؤذيان المحسودَ والمسحورَ بلا عملٍ

(١) أي سورة «الناس» .

منه ، بل هو أذى من أمر خارج عنه ، ففرّق بينهما في الذكر في سورة الفلق .

والوسواس إنما يؤذي العبد من داخل بواسطة مُسَاكِنَتِهِ له ، وقبوله منه ، ولهذا يُعاقَبُ العبد على الشر الذي يؤذيه به الشيطان من الوسواس التي تقترب بها الأفعال ، والعزم الجازم ، لأن ذلك بسعيه وإرادته ، بخلاف شر الحاسد والساحر فإنه لا يُعاقَبُ عليه ، إذ لا يُضاف إلى كسبه ولا إرادته ، فلهذا أفرد شر الشيطان في سورة ، وقرن بين شر الساحر والحاسد في سورة .

وكثيراً ما يجتمع في القرآن الحسد والسحر للمناسبة .
ولهذا كان اليهود أسحر الناس وأحسدَهم ، فإنهم لشدة حُبِّهم : فيهم من السحر والحسد ما ليس في غيرهم .

وقد وصفهم الله في كتابه بهذا وهذا ، فقال : ﴿ وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ . وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ، يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ . وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ . وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا : إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ، فَلَا تَكْفُرْ . فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ . وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ . وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ

(١) أنظر «التفسير القيم» (ص ٥٩٦) وما بعد .

مَالُهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ، وَلَبِئْسَمَا شَرُّوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾

والكلامُ على أسرار هذه الآية وأحكامها وما تَضَمَّنَتْه من القواعد والرد على من أنكر السحر ، وما تَضَمَّنَتْه من الفرقان بين السحر وبين المعجزات الذي أنكره من أنكر السحر خشية الالتباس - وقد تضمنت الآية أعظم الفرقان بينهما - في موضع غير هذا .

إذ المقصودُ على أسرار هاتين السورتين وشدة حاجة الخلق إليهما ، وأنه لا يقوم غيرهما مقامهما .

وأما وصفهم بالحسد فكثيرٌ في القرآن ، كقوله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (٢) وفي قوله : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (٣) .

والشيطانُ يُقَارَنُ السَّاحِرَ والحاسدَ ، ويُحَادِثُهُما ويصاحبُهُما ، ولكنَّ الحاسدَ تُعِينُهُ الشياطينُ بلا استدعاءٍ منه

(١) سورة البقرة : ١٠٢ .

(٢) سورة النساء : ٥٥ .

(٣) سورة البقرة : ١٠٩ .

للشيطان ، لأنَّ الحاسدَ شبيهُ إبليسَ ، وهو في الحقيقة من أتباعه ، لأنه يطلب ما يُحبه الشيطان من فساد الناس ، وزوالِ نِعَمِ الله عنهم ، كما أن إبليسَ حَسَدَ آدَمَ لِشَرَفِهِ وَفَضْلِهِ ، وأبى أن يسجد له حَسَدًا .

فالحاسدُ من جُندِ إبليس ، وأما الساحرُ فهو يطلب من الشيطان أن يُعينه ويستعينه . وربما يعبدُه من دون الله ، حتى يقضيَ له حاجتَه ، وربما يسجدُ له .

وفي كتب السحر والسر المكتوم من هذا عجائب ، ولهذا كلما كان الساحرُ أكْفَرَ وأخبَثَ وأشدَّ معاداةً لله ولرسوله ولعباده المؤمنين كان سحره أقوى وأنفذَ . وكان سحرُ عُبَادِ الأصنام أقوى من سحر أهلِ الكتاب ، وسحر اليهود أقوى من سحر المنتسبين إلى الإسلام ، وهم الذين سحروا رسولَ الله ﷺ (١) .

وفي «الموطأ» (٢) عن كعب قال : «كلمات أحفظهنَّ من التوراة ، لولاها لجعلتني يهودَ حماراً : أعوذُ بوجه الله العظيم ، الذي لا شيء أعظمُ منه ، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهنَّ بر ولا فاجر ، وبأسماء الله الحسنى ، ما علمتُ منها

(١) انظر «صحيح البخاري» (١٠/١٩١) و«صحيح مسلم» (٢١٨٩) .

(٢) (٢/٩٥١) .

وما لم أعلم: من شر ما خلق ، وذراً ، وبرأاً .

والمقصود: أن الساحر والحاسد كلُّ منهما قصده الشرُّ ،
لكنَّ الحاسدَ بطبعه ونفسه وبغضه للمحسود ، والشيطانُ يقتِرُن
به ويعينه ، ويُزَيِّن له حسده ، ويأمره بموجبه ، والساحرُ
بعلمه ، وكسبه ، وشركه ، واستعانته بالشياطين .

فصل

رَفَعُ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ (الْمُتَّقِي)
(أَسْلَمَ) (بِهِ) (الْمُؤْمِنِ)

وقوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ يعم الحاسد من الجن والإنس ، فإن الشيطان وحزبه يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله ، كما حسد إبليس أبانا آدم ، وهو عدو لذريته ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (١) .

ولكن الوسواس أخص بشياطين الجن ، والحسد أخص بشياطين الإنس ، والوسواس يعمهما ، كما سيأتي بيانهما ، والحسد يعمهما أيضاً ، فكل الشيطانين حاسدٌ مؤسوس . فالاستعاذة من كل شر في العالم .

وتضمنت شروراً أربعة يستعاذ منها : شراً عاماً . وهو شر ما خلق ، وشر الغاسق إذا وقب ، فهذان نوعان .

ثم ذكر شر الساحر والحاسد ، وهما نوعان أيضاً ، لأنهما من شر النفس الشريرة ، وأحدهما يستعين بالشيطان ويعبده ، وهو الساحر ، وقلما يتأتى السحر بدون نوع عبادة للشيطان ، وتقرب إليه : إما بذبح باسمه ، أو بذبح يقصد به هو ، فيكون

(١) سورة: فاطر، ٦ .

ذَبْحاً لغير الله ، وبغير ذلك من أنواع الشُّرك والفسوق .

والساحر وإن لم يُسَمَّ هذا عبادةً للشيطان ، فهو عبادةٌ له ،
وإن سَمَّاه بما سَمَّاه به ، فإنَّ الشُّرك والكفر هو شركٌ وكفرٌ
لحقيقته ومعناه ، لا لاسمه ولفظه .

فَمَن سجد لمخلوق ، وقال : ليس هذا بسجود له ، هذا
خضوعٌ وتقبيلُ الأرضِ بالجهة ، كما أُقبلُها بالنعَم ، أو هذا
إكرام : لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجوداً لغير الله فليُسَمَّه
بما يشاء .

وكذلك مَن ذبح للشيطان ودعاه واستعاذ به ، وتقرب إليه
بما يُحب ، فقد عبَّده ، وإن لم يُسَمَّ ذلك عبادةً ، بل يُسمَّيه
استخداماً ، وصَدَق ، هو استخدامٌ من الشيطان له ، فيصيرُ من
خَدَمِ الشيطان وعابديه ، وبذلك يخدمه الشيطان ، لكنَّ خدمةَ
الشيطان له ليست خدمةً عبادةً ، فإنَّ الشيطان لا يخضعُ له ولا
يعبِّده ، كما يفعل هو به ! .

والمقصودُ : أنَّ هذا عبادةٌ منه للشيطان ، وإنما سماه
استخداماً ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا
تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ؟ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾^(١) ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ

(١) سورة يَس : ٦٠ .

يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ : أَهْؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا
يَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا : سُبْحَانَكَ ، أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا
يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ، أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ .

فهؤلاء وأشباههم عبادُ الجنِّ والشياطين ، وهم أولياؤهم في
الدنيا والآخرة . ولبس المولى ، ولبس العشير ، فهذا أحدُ
النوعين .

والنوع الثاني : مَنْ يُعِينُهُ الشَّيْطَانُ ، وإن لم يستعن هو به ،
وهو الحاسدُ . لأنه نائبُه وخليفَتُه ، لأنَّ كليهما عدوٌّ نِعَمَ الله ،
ومُنْغَصَّها على عباده .

(١) سورة سبأ : ٤٠ ، ٤١ .

فصل

رَفَعُ
عَنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَتَأْمَلُ تَقْيِيدَهُ سَبْحَانَهُ شَرُّ الْحَاسِدِ بِقَوْلِهِ : ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ لِأَنَّ
الرَّجُلَ قَدْ يَكُونُ عِنْدَهُ حَسَدٌ ، وَلَكِنْ يُخْفِيهِ ، وَلَا يُرَتِّبُ عَلَيْهِ
أَذَى بَوَاحٍ مَا ، لَا بِقَلْبِهِ ، وَلَا بِلِسَانِهِ ، وَلَا بِيَدِهِ ، بَلْ يَجِدُ فِي
قَلْبِهِ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَعَامِلُ أَخَاهُ إِلَّا بِمَا يُحِبُّ اللَّهُ ، فَهَذَا لَا
يَكَادُ يَخْلُو مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا مِنْ عَصَمَةِ اللَّهِ .

وَقِيلَ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ : أَيَحْسُدُ الْمُؤْمِنُ ؟ قَالَ : مَا أَنْسَاكَ
لِإِخْوَةِ يُوسُفَ ! .

لَكِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْقُوَّةِ الَّتِي فِي قَلْبِهِ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ لَا يُطِيعُهَا
وَلَا يَأْتُمِرُ بِهَا ، بَلْ يَعَصِيهَا طَاعَةً لِلَّهِ وَخَوْفاً وَحَيَاءً مِنْهُ ، وَاجْتِلَالاً
لَهُ ، أَنْ يَكْرَهُ نِعَمَهُ عَلَى عِبَادِهِ ، فَيَرَى ذَلِكَ مَخَالَفَةً لِلَّهِ وَبَغْضاً
لِمَا يُحِبُّ اللَّهُ ، وَمَحَبَةً لِمَا يُبْغِضُهُ ، فَهُوَ يَجَاهِدُ نَفْسَهُ عَلَى دَفْعِ
ذَلِكَ ، وَيُلْزِمُهَا بِالْدَعَاءِ لِلْمَحْسُودِ ، وَتَمَنِّيِ زِيَادَةِ الْخَيْرِ لَهُ ،
بِخِلَافِ مَا إِذَا حَقَّقَ ذَلِكَ وَحَسَدَهُ وَرَتَّبَ عَلَى حَسَدِهِ مَقْتَضَاهُ مِنَ
الْأَذَى بِالْقَلْبِ ، وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ .

فَهَذَا الْحَسَدُ الْمَذْمُومُ . هَذَا كُلُّهُ حَسَدٌ تَمَنِّيِ الزَّوَالِ .
وَلِلْحَسَدِ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ : إِحْدَاهَا هَذِهِ :

والثانية: تمني استصحاب عدم النعمة ، فهو يكره أن يُحدِثَ الله لعبده نعمةً ، بل يُحبُّ أن يبقى على حاله من جهله ، أو فقره ، أو ضعفه ، أو شتات قلبه عن الله ، أو قلة دينه ، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقصٍ وعيبٍ ، فهذا حسدٌ على شيءٍ مُقدَّر .

والأول حسدٌ على شيءٍ مُحقق ، وكلاهما حاسدٌ ، عدوُّ نعمة الله ، وعدوُّ عباده ، وممقوتٌ عند الله تعالى ، وعند الناس ، ولا يسود أبداً ، ولا يواسي فإنَّ الناس لا يُسودون عليهم إلا مَنْ يريدُ الإحسان إليهم ، فأما عدوُّ نعمة الله عليهم فلا يُسودونه باختيارهم أبداً إلا قهراً يعدّونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم الله بها ، فهم يُبغضونه وهو يُبغضهم .

والحسدُ الثالثُ: حسد الغبطة ، وهو تمني أن يكونَ له مثلُ حالِ المحسودِ من غير أن تزول النعمةُ عنه ، فهذا لا بأس به ، ولا يُعاب صاحبه ، بل هذا قريبٌ من المنافسة^(١) .

وقد قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾^(٢) وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا حسدَ إلا في اثنتين:

(١) فليتنافس الحاسدون ، وليكن حسدُهم غبطةً ، لئلا يكونوا شياطين من

شياطين الإنس بنظراتهم ، وسواد قلوبهم ، وشدة حسدهم !!

(٢) سورة المطففين: ٢٦ .

رجل آتاه الله مالاً ، وسلّطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضي بها ويُعلّمها الناس»^(١) .

فهذا حسد غبطة ، الحامل لصاحبه عليه كبر نفسه ، وحب خصال الخير ، والتشبه بأهلها ، والدخول في جملتهم ، وأن يكون من سباقهم وعليتهم ، ومُصلّيهم لا من فساكلهم^(٢) ، فتحدث له من هذه الهمة المنافسة والمُسابقة والمُسارعة ، مع محبته لمن يغبطه ، وتمني دوام نعمة الله عليه ، فهذا لا يدخل في الآية بوجه ما .

فهذه السورة من أكبر أدوية الحسد ، فإنها تتضمن التوكّل على الله ، والالتجاء إليه ، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة ، فهو مستعيدٌ بولي النعم وموّلّيها ، كأنه يقول : يا من أولاني نعمته وأسداها إليّ أنا عائذ بك من شرّ من يريد أن يستلبها مني ، ويزيلها عني .

وهو حسب من توكل عليه ، وكافي من لجأ إليه ، وهو

(١) أخرجه البخاري (١٥٣/١) ومسلم (٨١٦) عن ابن مسعود، وفي الباب عن ابن عمر، وعن أبي هريرة، وانظر لزماً شرح الحافظ له في «فتح الباري» .

(٢) مفردها فُسْكُل، وهو الفرس الذي يجيء في حلبة السباق آخر الحبل، والمُصلّي: الذي يجيء منها تلو السابق .

الذي يُؤْمِنُ خَوْفَ الْخَائِفِ ، وَيُجِيرُ الْمُسْتَجِيرَ ، وهو نعم المولى
ونعم النصير ، فمن تَوَلَّاهُ واستنصر به ، وتوكل عليه وانقطع
بكلِّيته إليه ، تَوَلَّاهُ وحفظه وحرسه وصانه ، وَمَنْ خَافَهُ وَاتَّقَاهُ أَمَّنَّه
مِمَّا يَخَافُ وَيَحْذَرُ ، وَجَلَبَ إِلَيْهِ كُلَّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَنَافِعِ
﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (١) .

فلا تستبطيء نصره ورزقه وعافيته ، فَإِنَّ اللَّهَ بِالْغُ أَمْرِهِ ،
وقد جعل الله لكل شيء قدراً ، لا يتقدم عنه ولا يتأخر .

ومن لم يخفه أخافه من كل شيء ، وما خاف أحد غير الله
إِلَّا لِنَقْصِ خَوْفِهِ مِنَ اللَّهِ ، قال تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ
فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ
يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (٢) وقال : ﴿إِنَّمَا ذُلُّكُمُ الشَّيْطَانُ
يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ . فَلَا تَخَافُوهُمْ ، وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٣)
أي : يُخَوِّفُكُمْ بِأَوْلِيَائِهِ ، وَيُعْظِمُهُمْ فِي صُدُورِكُمْ . فلا
تخافوهم ، وأفردوني بالمخافة أكفكم إياهم .

(١) سورة الطلاق ، ٢ ، ٣ .

(٢) سورة النحل : ٩٨ ، ٩٩ .

(٣) سورة آل عمران : ١٧٥ .

فصل

رَفَعُ
عَنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(سُورَةُ الْاِنْفِرَاتِ)

ويندفع شرُّ الحاسِد عن المحسود بعشرة أسباب :

أحدها: التَعَوُّذُ بالله من شرِّه ، والتحصُّنُ به واللَّجَأُ إليه .
وهو المقصود بهذه السُّورة ، والله تعالى سميعٌ لاستعاذته ،
عليمٌ بما يستعيذ منه ، والسمع هنا المراد به : سَمْعُ الإِجابة ،
لا السمع العام ، فهو مثل قوله : «سمع الله لِمَنْ حَمِدَهُ» وقول
الخليل ﷺ : ١٤ : ٣٩ ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾^(١) ومرة يقرُّنه
بالعلم ، ومرة بالبصر ، لاقتضاء حال المستعيذ ذلك ، فإنه
يستعيذ به من عَدُوٍّ يعلم أن الله يراه ، ويعلمُ كيده وشرِّه .

فأخبر الله تعالى هذا المستعيذ أنه سميعٌ لاستعاذته ، أي
مجيبٌ ، عليمٌ بكيدِ عدوِّه ، يراه ويُبصره ، لينبسطَ أملُ
المستعيذ ، ويُقبَلَ بقلبه على الدعاء .

وتأملُ حكمةَ القرآن ، كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان
الذي نعلم وجوده ولا نراه بلفظ: ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢) في
الأعراف وحمّ السجدة . . وجاءت الاستعاذة من شرِّ الإنس

(١) سورة إبراهيم : ٣٩ .

(٢) بل في سورة فصلت : ٣٦ .

الذين يُؤَنِّسُونَ ويُرُونَ بالأبصار بلفظ: ﴿السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ في سورة حَمَّ المؤمن ، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ، إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ، لأنَّ أفعال هؤلاء أفعال معَايِنَةٍ تُرى بالبصر ، وأما نزغ الشيطان فوساوس ، وخطرات يُلقِيها في القلب ، يتعلَّق بها العلم ، فَأَمَرَ بالاستعاذة بالسميع العليم فيها ، وَأَمَرَ بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يرى بالبصر ، ويدرك بالرؤية . والله أعلم .

السبب الثاني : تقوى الله ، وحفظه عند أمره ونهيهِ .
فمن اتقى الله تَوَلَّى الله حِفْظَهُ ، ولم يَكِلْهُ إِلَى غَيْرِهِ ، قال تعالى : ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس : «احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك» (١) ، فمن حَفِظَ الله حَفِظَهُ الله ، ووجده أمامه أينما تَوَجَّهَ ، وَمَنْ كَانَ اللهُ حَافِظَهُ وَأَمَامَهُ فَمَنْ يَخَافُ ؟ وَمَنْ

(١) أخرجه أحمد (٣٠٧/١) والترمذي (٢٦٣٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ٧٥) والطبراني في «الكبير» (٢٢٣/١١) وأبو نعيم (٣١٤/١) عن ابن عباس بإسناد حسن ، وورد أيضاً عن أبي سعيد الخدري ، وانظر جامع العلوم والحكم (٢١٠/٥) للحافظ ابن رجب .

يحذر؟

السبب الثالث: الصبر على عدوّه ، وأن لا يقاتله ولا يشكوه ، ولا يُحدّث نفسه بأذاه أصلاً .

فما نُصِر على حاسده وعدوّه بمثل الصبر عليه ، والتوكّل على الله ولا يستطل تأخيرَه وبُغيه ، فإنه كلما بُغِيَ عليه كان بُغيه سهامٌ يرميها من نفسه إلى نفسه .

ولورأى المبغي عليه ذلك لسرّه بُغيه عليه ، ولكن لِضَعْفِ بصيرته لا يرى إلا صورةَ البغي ، دون آخره ومآله ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾ ^(١) فإذا كان الله قد ضَمِنَ له النصرَ ، مع أنه قد استوفى حقه أولاً ، فكيف بمن لم يستوفِ شيئاً من حقه ، بل بُغِيَ عليه وهو صابرٌ؟ وما من الذنوب ذنبٌ أسرعُ عقوبةً من البغي وقطيعة الرحم ، وقد سبقت سُنَّةُ الله : أنه لو بُغِيَ جَبَلٌ على جَبَلٍ لجعل الباغي منهما دَكًّا!!

السبب الرابع: التوكّل على الله .

فَمَنْ يتوكّل على الله فهو حَسْبُهُ ، والتوكّل من أقوى الأسباب التي يَدْفَعُ بها العبدُ ما لا يطيقُ من أذى الخلقِ وظلمهم

(١) سورة الحج : ٦٠ .

وَعُدَّوَانَهُمْ ، وَهُوَ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ فِي ذَلِكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ حَسْبُهُ ،
أَي : كَافِيهِ ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ كُافِيَهُ وَوَأَقِيَهُ فَلَا مَطْمَعَ فِيهِ لِعَدُوِّهِ ، وَلَا
يُضِرُّهُ إِلَّا أَذًى لَا بَدَّ مِنْهُ ، كَالْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ ، وَإِمَّا
أَنْ يَضُرَّهُ بِمَا يَبْلُغُ مِنْهُ مَرَادَهُ فَلَا يَكُونُ أَبَدًا وَفَرَقَ بَيْنَ الْأَذَى الَّذِي
هُوَ فِي الظَّاهِرِ إِذَاءَ لَهُ ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ إِحْسَانٌ إِلَيْهِ وَإِضْرَارٌ
بِنَفْسِهِ ، وَبَيْنَ الضَّرَرِ الَّذِي يَتَشَفَّى بِهِ مِنْهُ .

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ عَمَلٍ جَزَاءً مِنْ
جَنَسِهِ ، وَجَعَلَ جَزَاءَ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ نَفْسَ كَفَايَتِهِ لِعَبْدِهِ ، فَقَالَ :
﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(١) وَلَمْ يَقُلْ : نَوْتُهُ كَذَا وَكَذَا
مِنَ الْأَجْرِ ، كَمَا قَالَ فِي الْأَعْمَالِ ، بَلْ جَعَلَ نَفْسَهُ سَبْحَانَهُ كَافِي
عَبْدِهِ الْمُتَوَكِّلِ عَلَيْهِ وَحَسْبَهُ ، وَوَأَقِيَهُ ، فَلَوْ تَوَكَّلَ الْعَبْدُ عَلَى اللَّهِ
حَقَّ تَوَكُّلِهِ ، وَكَادَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ لَجْعَلَ لَهُ رَبُّهُ
مَخْرَجًا مِنْ ذَلِكَ ، وَكَفَاهُ وَنَصَرَهُ .

وَقَدْ ذَكَرْنَا حَقِيقَةَ التَّوَكُّلِ وَفَوَائِدَهُ ، وَعَظَمَ مَنَفَعَتَهُ ، وَشِدَّةَ
حَاجَةِ الْعَبْدِ إِلَيْهِ فِي كِتَابِ «الْفَتْحِ الْقُدْسِيِّ»^(٢) وَذَكَرْنَا هُنَاكَ فُسَادَ
مَنْ جَعَلَهُ مِنَ الْمَقَامَاتِ الْمَعْلُولَةِ ، وَأَنَّهُ مِنْ مَقَامَاتِ الْعَوَامِ .

(١) سُورَةُ الطَّلَاقِ : ٣ .

(٢) مِنْ كُتُبِ الْمُصَنِّفِ الْمَفْقُودَةِ وَانْظُرْ «هُدْيَةَ الْعَارِفِينَ» (٢/ ١٥٨) وَكِتَابُ
«ابْنِ قِيمِ الْجَوْزِيَّةِ : حَيَاتِهِ وَآثَارِهِ» (ص ١٧٥) لِبَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَبُو زَيْدٍ .

وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة . ويُنَّا أنه من أجلِّ مقامات العارفين ، وأنه كلما علا مقامُ العبدِ كانت حاجتهُ إلى التوكل أعظم وأشدَّ وأنه على قَدْرِ إيمان العبدِ يكونُ توكلُّه .

وإنما المقصودُ هنا ذكرُ الأسبابِ التي يندفع بها شرُّ الحاسدِ والعائنِ ، والساحرِ والباغي!

السبب الخامس : فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه .

وأن يقصد أن يمحوه من باله كلُّ ما خطر له ، فلا يلتفتُ إليه ولا يخافه ، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه .

وهذا من أنفعِ الأدويةِ وأقوى الأسبابِ المُعينة على اندفاع شرِّه ، فإن هذا بمنزلة مَنْ يطلبه عدوُّه لِيُمسِكَه ويؤذيه ، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإيَّاه ، بل انعزل عنه لم يَقْدِرْ عليه ، فإذا تماسكا وتعلَّق كلُّ منهما بصاحبه ، حصل الشرُّ وهكذا الأرواحُ سواءً، فإذا علَّق روحه وشَبَّثها به ، وروحُ الحاسدِ الباغي متعلِّقةٌ به يقظةً ومناماً ، لا يفتر عنه ، وهو يتمنى أن يتماسك الروحانِ ويتشَبَّثا ، فإذا تعلَّقت كلُّ روحٍ منهما بالأخرى عُدِمَ القرارُ ، ودام الشرُّ ، حتَّى يَهْلِكَ أحدهما ، فإذا جَبَذَ^(١) روحه منه ، وصانها عن الفكر فيه والتعلُّق به ، وأن لا يخطره ببال ،

(١) أي : جذب .

فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر ، والاشتغال بما هو
أَنْفَعُ لَهُ وَأَوْلَى بِهِ ، بقي الحاسدُ الباغي يأكل بعضه بعضاً . فإنَّ
الحسد كالنار ، فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضاً .

وهذا بابٌ عظيمُ النفع لا يُلقاه إلا أصحابُ النفوس
الشريفة والهمم العلية ، وبين الكيس الفطن وبينه حتى
يدوق حلاوته وطيبه ونعيمه كأنه يرى من أعظم عذاب القلب
والروح اشتغاله بعدوه ، وتعلق روحه به ، ولا يرى شيئاً آلم
لروحه من ذلك ، ولا يُصدق بهذا إلا النفوسُ المطمئنة
الوادعة اللينة ، التي رضيت بوكالة الله لها ، وَعَلِمَتْ أَنَّ
نصره لها خيرٌ من انتصارها هي لنفسها ، فَوَثَّقَتْ بالله ،
وَسَكَنْتْ إِلَيْهِ ، واطمأنت به ، وعلمت أَنَّ ضمانه حقٌّ ،
ووعده صدقٌ ، وأنه لا أوفى بعهد من الله ، ولا أصدق منه
قيلاً ، فعلمت أَنَّ نصره لها أقوى وأثبت وأدوم ، وأعظم
فائدةً من نصرها هي لنفسها ، أو نصر مخلوقٍ مثلها لها ،
ولا يُقوى على هذا إلا بالسبب السادس .

[السبب السادس]: وهو الإقبال على الله ،
والإخلاص له .

وجَعَلَ محبته ورضاه والإجابة إليه في محل خواطر نفسه ،
وأمانها تدبُّ فيها . الخواطر شيئاً فشيئاً ، حتى يقهرها
ويغمرها ويذهبها بالكلية ، فتبقى سراطره وهواجسه وأمانه كلها
في محابِّ الرب ، والتقرُّب إليه وتملّقه وترضيه ، واستعطافه

وَذَكَرَهُ كَمَا يَذْكُرُ الْمَحَبُّ التَّامُّ الْمَحَبَّةَ مَحْبُوبُهُ الْمُحْسَنَ إِلَيْهِ
الَّذِي قَدْ اِمْتَلَأَتْ جَوَانِحُهُ مِنْ حُبِّهِ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ قَلْبُهُ انْصِرَافاً
عَنْ ذِكْرِهِ ، وَلَا رَوْحُهُ انْصِرَافاً عَنْ مَحَبَّتِهِ ، فَإِذَا صَارَ كَذَلِكَ
فَكَيْفَ يَرْضَى لِنَفْسِهِ أَنْ يَجْعَلَ بَيْتَ أَفْكَارِهِ وَقَلْبَهُ مَعْموراً بِالْفِكْرِ
فِي حَاسِدِهِ وَالْبَاغِي عَلَيْهِ ، وَالطَّرِيقَ إِلَى الْاِنْتِقَامِ مِنْهُ ، وَالتَّدْبِيرَ
عَلَيْهِ؟

هَذَا مَا لَا يَتَسَّعُ لَهُ إِلَّا قَلْبٌ خَرَابٌ لَمْ تَسْكُنْ فِيهِ مَحَبَّةُ
اللَّهِ وَإِجْلَالُهُ وَطَلَبُ مَرْضَاتِهِ ، بَلْ إِذَا مَسَّهُ طَيْفٌ مِنْ ذَلِكَ
وَاجْتَاَزَ بِيَابَهُ مِنْ خَارِجٍ ، نَادَاهُ حَرَسُ قَلْبِهِ : إِيَّاكَ وَحِمِّي
الْمُلْكَ ، اذْهَبْ إِلَى بِيُوتِ الْخَانَاتِ الَّتِي كُلُّ مَنْ جَاءَ حَلَّ
فِيهَا ، وَنَزَلَ بِهَا ، مَالِكٌ وَلِبَيْتِ السُّلْطَانِ الَّذِي أَقَامَ الْيَزْكَ (١)
وَأَدَارَ عَلَيْهِ الْحَرَسَ ، وَأَحَاطَهُ بِالسُّورِ ، قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ
عَدُوِّهِ إِبْلِيسَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا
عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ (٢) ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّ عِبَادِي
لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (٣) ، وَقَالَ : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ
عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى
الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (٤) وَقَالَ فِي

(١) لعلها بمعنى السياج .

(٢) سورة ص : ٨٢ .

(٣) سورة الحجر : ٤٢ .

(٤) سورة النحل : ٩٩ .

حَقَّ الصَّدِيقِ يَوْسُفَ ﷺ: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ
وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (١).

فَمَا أَعْظَمَ سَعَادَةَ مَنْ دَخَلَ هَذَا الْحَصْنَ ، وَصَارَ دَاخِلَ
الْيَزَكِ ، لَقَدْ آوَى إِلَى حِصْنٍ لَا خَوْفَ عَلَى مَنْ تَحَصَّنَ بِهِ ، وَلَا
ضِيعَةَ عَلَى مَنْ آوَى إِلَيْهِ ، وَلَا مَطْمَعَ لِلْعَدُوِّ فِي الدُّنُوِّ إِلَيْهِ مِنْهُ
﴿وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢) .

السبب السابع: تجريدُ التوبة إلى الله من الذنوب التي
سَلَّطَتْ عَلَيْهِ أَعْدَاءُهُ .

فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ
أَيْدِيكُمْ﴾ (٣) وَقَالَ لَخَيْرِ الْخَلْقِ ، وَهُمْ أَصْحَابُ نَبِيِّهِ دُونَهُ ﷺ:
﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ: أِنِّي هَذَا؟ قُلْ
هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ (٤) .

فَمَا سُلِّطَ عَلَى الْعَبْدِ مَنْ يُؤْذِيهِ إِلَّا بِذَنْبٍ يَعْلَمُهُ أَوْ لَا
يَعْلَمُهُ ، وَمَا لَا يَعْلَمُهُ الْعَبْدُ مِنْ ذَنْبِهِ أَوْ يَعْلَمُهُ مِنْهَا ،
وَمَا يَنْسَاهُ مِمَّا عَمِلَهُ أَوْ يَعْلَمُهُ مِنْهَا .

(١) سورة يوسف: ٢٤ .

(٢) سورة الحديد: ٢١ .

(٣) سورة الشورى: ٣٠ .

(٤) سورة آل عمران: ١٦٥ .

وفي الدعاء المشهور: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم»^(١)

فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف
أضعاف ما يعلمه ، فما سُلِّط عليه مؤذٍ إلا بذنب .

ولقي بعض السلف رجلٌ فأغلظ له ونال منه ، فقال له :
قف حتى أدخل البيت ، ثم أخرج إليك ، فدخل فسجد لله
وتضرع إليه وتاب وأناب إلى ربه ، ثم خرج إليه فقال له : ما
صنعت ؟ فقال : تبت إلى الله من الذنب الذي سَلَطَك به عَلَيَّ .

وسنذكر إن شاء الله تعالى أنه ليس في الوجود شرٌ إلا
الذنوب وموجباتها . فإذا عوفي العبد من الذنوب عوفي من
موجباتها ، فليس للعبد إذا بُغِيَ عليه وأوذى وتسلَّط عليه خصوصه
شيءٌ أنفع له من التوبة النصوح .

وعلاوة سعادته : أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه
وعيوبه ، فيشتغل بها ويأصلحها وبالتوبة منها ، فلا يبقى فيه
فراغٌ لتدبر ما نزل به ، بل يتولَّى هو التوبة وإصلاح عيوبه ، والله

(١) أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (رقم : ٨٢ - مهذبي) ،
وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» (٣٦٢٥) ونسبه للحكيم
الترمذي عن أبي بكر وصححه شيخنا «صحيح الجامع» (٢٣٣/٤) .

يتولى نصرته وحفظه ، والدفع عنه ولا بُد .

فما أسعده من عبد ، وما أبركها من نازلةٍ نزلت به ، وما أحسن أثرها عليه ، ولكن التوفيق والرشد بيد الله ، لا مانع لما أعطى ، ولا مُعطي لما مَنع ، فما كلُّ أحدٍ يُوفَّقُ لهذا ، لا معرفةً به ، ولا إرادةً له ، ولا قُدرةً عليه ، ولا حَوْلَ ولا قوَّةَ إلا بالله .

السبب الثامن : الصدقة والإحسان ما أمكنه .

فإنَّ لذلك تأثيراً عجيباً في دفع البلاء ، ودفع العين ، وشر الحاسد ، ولو لم يكن في هذا إلا بتجارِبِ الأمم قديماً وحديثاً لكفى به .

فما تكاد العين والحسد والأذى يتسلط على مُحسن متصدِّق ، وإن أصابه شيءٌ من ذلك كان معاملاً فيه باللطف والمعونة والتأييد ، وكانت له فيه العاقبة الحميدة .

فالمُحسن المتصدِّق في خَفارة إحسانه وصدقته ، عليه من الله جنةٌ واقيةٌ ، وحِصْنٌ حصينٌ .

وبالجملة : فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سبباً لزوالها .

ومن أقوى الأسباب : حسد الحاسد والعائن . . فإنه لا يفترُّ

ولا يني^(١) ، ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود ،
فحينئذ يبرد أنينه وتتطفئ ناره . . لا أطفأها الله - فما حرس
العبد نعمة الله عليه بمثل شكرها ، ولا عرّضها للزوال بمثل
العمل فيها بمعاصي الله ، وهو كفران النعمة ، وهو باب إلى
كفران المنعم .

فالمحسن المتصدق يستخدم جنداً وعسكراً يُقاتلون عنه
وهو نائم على فراشه ، فمن لم يكن له جند ولا عسكر ، وله
عدو ، فإنه يوشك أن يظفر به عدوه ، وإن تأخرت مدة الظفر .
والله المستعان .

السبب التاسع : وهو من أصعب الأسباب على
النفس ، وأشقها عليها ، ولا يُوفق له إلا مَنْ عَظُمَ حُظُّهُ مِنَ
الله - وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان
إليه ، فكلما ازداد أذى وشرّاً وبغياً وحسداً ازدادت إليه
إحساناً ، وله نصيحة ، وعليه شفقة . وما أظنك تُصدّق بأن
هذا يكون ، فضلاً عن أن تتعاطاه .

فاسمع الآن قوله عز وجل : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا
السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ

(١) يضعف .

وَلِيَّ حَمِيمٍ . وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا . وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ . إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ^(١)؛ وقال : ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ، وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ . وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(٢) .

وتأمل حال النبي ﷺ إذ ضربه قومه حتى أَدَمَوْهُ ، فجعل يَسْلُتُ الدَّمَ عنه ، ويقول : «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(٣) . كيف جمع في هذه الكلمات أربع مقامات من الإحسان ، قابل بها إساءتهم العظيمة إليه؟

أحدها : عفوهم عنهم .

والثاني : استغفارهم لهم .

والثالث : اعتذارهم عنهم بأنهم لا يعلمون .

والرابع : استعطافه بإضافتهم إليه . فقال : «اغفر لقومي» كما يقول الرجل لمن يشفعُ عنده فيمن يتصل به : هذا ولدي ، هذا غلامي ، هذا صاحبي ، فَهَبْهُ لي .

(١) سورة فصلت : ٣٤ .

(٢) سورة القصص : ٥٤ .

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٩/١٢) ومسلم (١٧٩٢) عن ابن مسعود بنحوه .

واسمع الآن ما الذي يُسهِّل هذا على النفس ، وَيُطَيِّبُهُ إِلَيْهَا
وَيُنْعِمُهَا بِهِ :

اعلم أَنَّ لك ذنوباً بينك وبين الله ، تخافُ عواقبها ،
وترجوه أَنْ يعفو عنها وَيَغْفِرَهَا لك وَيَهَبَهَا لك ، ومع هذا لا يقتصرُ
على مُجَرَّد العفو والمسامحة ، حتى يُنْعِمَ عليك وَيُكْرِمَكَ ،
ويجلبَ إِلَيْكَ مِنَ المنافع والاحسان فوق ما تُؤمِّلُهُ .

فإذا كنتَ ترجو هذا من رَبِّكَ ، وتحبُّ أَنْ يقابلَ به
إِسَاءَتَكَ ، فما أَوْلَاكَ وَأَجْدَرَكَ أَنْ تُعَامِلَ بِهِ خَلْقَهُ ، وتقابلَ به
إِسَاءَتَهُمْ؟ لِيُعَامِلَكَ اللهُ تِلْكَ المعاملة ، فَإِنَّ الجزاءَ من جنسِ
العمل^(١) ، فكما تَعْمَلُ مَعَ الناسِ فِي إِسَاءَتِهِمْ فِي حَقِّكَ يَفْعَلُ
اللهُ مَعَكَ فِي ذُنُوبِكَ وَإِسَاءَتِكَ ، جزاءً وفاقاً ، فانتقمُ بعد
ذلك ، أو اعفُ ، وَأَحْسِنُ أو اتركُ . فكما تَدِينُ تُدَانُ ، وكما
تفعلُ مَعَ عِبَادِهِ يَفْعَلُ مَعَكَ .

فَمَنْ تَصَوَّرَ هذا المعنى ، وشَغَلَ بِهِ فِكْرَهُ ، هَانَ عَلَيْهِ
الإِحْسَانُ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ .

وهذا مع ما يحصلُ له بذلك مِنْ نَصْرِ اللهِ وَمِعْيَتِهِ الْخَاصَّةِ .
كما قال النبي ﷺ للذي شكى إِلَيْهِ قَرَابَتَهُ ، وَأَنَّهُ يُحْسِنُ إِلَيْهِمْ ،

(١) انظر ما تقدم (ص ٢٠) .

وهم يسيئون إليه ، فقال : « لا يزال معك من الله ظهيرٌ ، ما دُمْتَ على ذلك »^(١) .

هذا مع ما يتعجّله من ثناء الناس عليه ، ويصيرون كلُّهم معه على خصمه ، فإنَّ كلَّ من سمع أنه محسنٌ إلى ذلك الغير ، وهو مُسيءٌ إليه ، وجد قلبه ودعائه وهِمَّتُه مع المُحسن على المسيء ، وذلك أمرٌ فطريٌّ ، فطر الله عليه عباده .

فهو بهذا الإحسان ، قد استخدم عسكراً لا يَعْرِفُهُمْ ولا يَعْرِفُونَهُ ، ولا يريدون منه إقطاعاً ولا خُبْراً .

هذا مع أنه لا بُدَّ له مع عدوّه وحاسده من إحدى حالتين : إما أن يملكه بإحسانه ، فيستعبده وينقاد له ويذلُّ له ، ويبقى الناس إليه .

وإما أن يُفْتَتَّ كبده ويقطع دابره ، إن أقام على إساءته إليه ، فإنه يُذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه .

وَمَنْ جَرَّبَ هذا عرفه حق المعرفة . والله هو المُوفق والمُعِين ، بيده الخيرُ كُلُّه ، لا إله غيره ، وهو المسؤولُ أن يستعملنا وإخواننا في ذلك بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٨) وأحمد (١٨١/٢) و٢٠١ و٢٠٠ و٤١٢ و (٤٨٤) ، والبخاري (٣٤٣٦) عن أبي هريرة .

وفي الجملة : ففي هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مئة
منفعة للعبد ، عاجلة وآجلة ، سنذكرها في موضع آخر إن شاء
الله تعالى .

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله ، وعليه مدار هذه
الأسباب وهو تجريد التوحيد ، والترحُّل بالفكر في الأسباب إلى
المُسبَّب العزيز الحكيم ، والعلم بأن هذه الآلات بمنزلة
حركات الرياح ، وهي بيد مُحَرِّكِهَا ، وفاطِرها وبارئها ، ولا
تضرُّ ولا تنفع إلا بإذنه ، فهو الذي يُحسِّن عبده بها ، وهو الذي
يصرفها عنه وحده لا أحد سواه .

قال تعالى : ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا
هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ (١) .

وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما :
«واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا
بشيء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم
يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك» (٢) .

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه ،
وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله بل يُفرد الله بالمخافة

(١) سورة يونس : ١٠٧ .

(٢) قطعة من حديث : «احفظ الله يحفظك . . .» وقد تقدم تخريجه .

وقد أَمَنَهُ مِنْهُ ، وَخَرَجَ مِنْ قَلْبِهِ اهْتِمَامُهُ بِهِ ، وَاشْتَغَالُهُ بِهِ ، وَفِكْرُهُ فِيهِ ، وَتَجَرَّدَ لِلَّهِ مَحَبَّةً وَخَشْيَةً وَإِنَابَةً وَتَوَكُّلاً ، وَاشْتَغَالاً بِهِ عَنْ غَيْرِهِ ، فَيَرَى أَنَّ إِعْمَالَهُ فِي أَمْرِ عَدُوِّهِ وَخَوْفَهُ مِنْهُ وَاشْتَغَالَهُ بِهِ مِنْ نَقْصِ تَوْحِيدِهِ ، وَإِلَّا فَلَوْ جَرَّدَ تَوْحِيدَهُ لَكَانَ لَهُ فِيهِ شُغْلٌ شَاغِلٌ ، وَاللَّهُ يَتَوَلَّى حِفْظَهُ وَالِدْفَعِ عَنْهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ ، فَاللَّهُ يَدَافِعُ عَنْهُ وَلَا بُدَّ .

وَبِحَسَبِ إِيْمَانِهِ يَكُونُ دِفَاعُ اللَّهِ عَنْهُ ، فَإِنَّ كَمَلَ إِيْمَانُهُ كَانَ دَفْعُ اللَّهِ عَنْهُ أَتَمَّ دَفْعٍ ، وَإِنْ مَزَجَ ، مَزَجَ لَهُ . وَإِنْ كَانَ مَرَّةً وَمَرَّةً فَاللَّهُ لَهُ مَرَّةً وَمَرَّةً ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : مَنْ أَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ بِكَلِيَّتِهِ أَقْبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ جُمْلَةً ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ بِكَلِيَّتِهِ أَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ جُمْلَةً ، وَمَنْ كَانَ مَرَّةً وَمَرَّةً فَاللَّهُ لَهُ مَرَّةً وَمَرَّةً .

فَالْتَوْحِيدُ حِصْنُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ مِنَ الْأَمْنِينَ ، قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ (٢) : مَنْ خَافَ اللَّهَ خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَمَنْ لَمْ يَخَفِ اللَّهَ أَخَافَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

هَذِهِ عَشْرَةُ أَسْبَابٍ يَنْدَفِعُ بِهَا شَرُّ الْحَاسِدِ وَالْعَائِنِ وَالسَّاحِرِ ، وَلَيْسَ لَهُ أَنْفَعُ مِنَ التَّوَجُّهِ إِلَى اللَّهِ وَإِقْبَالِهِ عَلَيْهِ ، وَتَوَكُّلِهِ عَلَيْهِ ،

(١) هُوَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، رَوَاهُ عَنْهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيْمَانِ» كَذَا فِي «كَشَفِ الْخَفَاءِ» (٢/ ٢٤٩) وَبَعْضُهُمْ يَنْسِبُهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا يَصِحُّ عَنْهُ ، وَانْظُرْ «مَخْتَصِرَ الْمَقَاصِدِ الْحَسَنَةِ» (رَقْمٌ : ١٠٢٤) وَتَعْلِيقَ مُحَقِّقٍ عَلَيْهِ .

وثقته به ، وأن لا يخاف معه غيره ، بل يكون خوفه منه وحده ،
ولا يعلق قلبه بغيره ، ولا يستغيث بسواه ، ولا يرجو إلا إياه ،
ومتى علق قلبه بغيره ورجاه وخافه : وكَلَّ إليه وخُذِلَ مِنْ جهته ،
فَمَنْ خاف شيئاً غيرَ الله سُلِّطَ عليه ، وَمَنْ رجا شيئاً سوى الله
خُذِلَ مِنْ جهته وحُرمَ خَيْرُهُ ، هذه سُنَّةُ الله في خلقه ، ولن تجد
لسنة الله تبديلاً ، [والحمد لله رب العالمين] .

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الفردوس